عقدة المغلوب وتجلياتها عند الملحدين وأشباه الملحدين في بلاد المسلمين

أ د. صالح عسكر/كلية العلوم الإسلامية–جامعة باتنة1

salah.askar@univ-batna.dz

بسم الله الرحمن الرحيم

عقدة المغلوب وتجلياتها

عند الملحدين وأشباه الملحدين

في بلاد المسلمين

تسعى هذه الورقة للغوص في الخلفية التي ينطلق منها الملحدون وأشباه الملحدين في بلاد المسلمين والتي قد لا يتنبه إليها كثير من الذين يناقشونهم ويحاورونهم ويحاولون تصحيح انحرافهم وأخطائهم أو الرد عليهم، ويؤدي إغفال هذه الخلفية إلى استدراج المسلم إلى نقاش وجدال عقيم معهم يستغلونه في الاستهزاء به وبدينه ونشر أكبر قدر من الشبهات حوله غير آبهين برد منطقي أو حجة علمية.

ورغم أن هؤلاء الذين أسميناهم الملحدين وأشباه الملحدين يتظاهرون بالعقل والعلم والمنطق والتفكير والقدرة على الحوار وقبول الآخر ونبذ التعصب والميل إلى السلم وإتاحة حيز للمخالف وتقبل رأيه ومعتقده... إلا أن أفعالهم تظهر نقيض ما يدعون، فبمجرد نقد مسلماتهم يسفرون عن وجه قبيح يسمون فيه مخالف رأيهم بعديم العقل، ويصفونه بالجاهل والمتعصب والمتخلف وغير المتسامح وغير القابل للرأي المخالف... ومن تأمل حالهم وجدهم يصدقون أنفسهم رغم تناقضهم ومخالفة حالهم لأقوالهم.

ولئن بدا ذلك لغيرهم غريبا، فإن هذه الغرابة سرعان ما ستزول لو عرف السبب الذي يختفي وراءها وهو شعور المغلوب الذي جعل معتقدات الغالب عنده مسلمات مرجعية غير قابلة للنقد أو التشكيك..

من هنا تطرح هذه الورقة دراسة عقدة المغلوب وكيف تتجلى في تفكير وأقوال الملحدين وأشباه الملحدين الذين يعيشون في بلاد المسلمين أو تنتمي أصولهم إليها.

ما هي عقدة المغلوب؟

عقدة المغلوب شعور بالدونية يجعل صاحبه يريد أن يقلد من يشعر نحوه بهذه الدونية ليقنع نفسه أنه قد أصبح مثله وانتمى لطبقته وتفوق على الذين يعتبرهم مغلوبين ممن كانوا من أمثاله وتعالى عليهم فتخلص بذلك من مشابهتم والانتماء إليهم.

وفي دراسته للتاريخ لاحظ ابن خلدون أن المغلوبين يسعون دائما للتشبه بغالبيهم وسجل ذلك في الفصل الثالث والعشرين من مقدمته، فقال:"المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"[i]. والمهم في كلام ابن خلدون هذا هو حديثه لا عن الجانب المادي المظهري فقط الذي سماه بالشعار والزي، بل وعن الجانب الاعتقادي والنفسي غير المرئي وهو ما عبر عنه بالنحلة: أي الاعتقاد والتفكير والمذهب.

ويقدم المؤرخ المشهور الذي يرى كثير من الباحثين أنه هو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع (العمران البشري) تفسيرا لذلك فيقول:"والسّبب في ذلك أنّ النّفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ إنّما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتّصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبّهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم من أنّ غلب الغالب لها ليس بعصبيّة ولا قوّة بأس وإنّما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأوّل"[ii].

فابن خلدون يعلل هذا السعي للتشبه بالغالب بشعور نفسي يقع في قلب المغلوب يجعله يتصور الكمال في من غلبه، فيسعى لهذا الكمال باستنساخ صورته وحاله ومعتقداته، " ولذلك ترى المغلوب يتشبّه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتّخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبّهين بهم دائما وما ذلك إلّا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر إلى كلّ قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زيّ الحامية وجند السّلطان في الأكثر لأنّهم الغالبون لهم"[iii].

ويقول أيضا:" وتأمّل في هذا سرّ قولهم العامّة على دين الملك فإنّه من بابه إذ الملك غالب لمن تحت يده والرّعيّة مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلّمين بمعلّميهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التّوفيق".

وجدير بالذكر أن ابن خلدون تحدث عن "اقتداء" المغلوب بالغالب، ونحن نرى أن كلمة "التقليد" أدق وأولى، لأن الاقتداء يحدث عادة عن وعي وإدراك بخلاف التقليد، ولعل ابن خلدون كان يكتب في بيئة كان شعور الدونية فيها والمغلوبية شعورا يحسه غير المسلمين إذا ما قارنوا أنفسهم بالمسلمين، ثم تحولت الصورة وانعكست وانقلبت بتحول الغلبة لغير المسلمين، ولذلك تعتبر هذه الفئة فئة جديدة لم تكن معروفة في عصور الإسلام الزاهرة.

وتشير كتابات العلماء والمصادر التاريخية والفتاوى الشرعية التي أوردتها المصادر الفقهية إلى أن غير المسلمين هم الذين كانوا يتشبهون بالمسلمين ويسعون إلى تمثل صورتهم

قال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم:"... من ذلك: أن أمير المؤمنين عمر، في الصحابة رضي الله عنهم، ثم عامة الأئمة بعده، وسائر الفقهاء، جعلوا في الشروط المشروطة على أهل الذمة من النصارى وغيرهم، فيما شرطوه على أنفسهم " أن نوقر المسلمين ... ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم قلنسوة، أو عمامة، أو نعلين، أو فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتنى بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نحمله، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقادم رءوسنا، وأن نلزم زينا حيثما كان، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا"[iv].

وتنقل المصادر التاريخية نموذجا لذلك في وثبقة كتبها أحد القساوسة الأندلسيين سنة 240هـ/854م- وهو القس ألفارو القرطبي يقول فيها:"إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويُقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردّوا عليها وينقضوها وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلاً صحيحا!! وأين تجد الآن واحداً -مِن غير رجال الدين- يقرأ الشروح اللاتينية التي كُتبت على الأناجيل المقدسة؟! ومَن -سوى رجال الدين- يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة!!...

إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويُقبلون عليها في نَهَم، وهم يُنفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويصرحون -في كل مكان- بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب؛ فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك -في ازدراء- بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم؛ يا للألم! لقد أُنسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب مُنمَّق، بل هم يَنْظمون من الشعر العربي ما يفوق شعرَ العرب أنفسِهم فناً وجمالاً"!!"[v]

والشكوى نفسها نقلت عن الطبيب اليهودي السرقسطي سليمان بن يوسف بن يعقوب أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي يشكو فيها من علماء اليهود الأندلسيين "الذين كانوا يكتبون ردودهم وكتبهم باللغة العربية -إبان القرنين الرابع والخامس الهجريّيْن/العاشر والحادي عشر الميلاديّيْن- بدعوى أنها اللسان الذي يفهمه كل اليهود"[vi].

هذه النصوص نماذج تحمل دلالة واضحة على أن غير المسلمين كانوا هم الذين يعانون من عقدة المغلوب وكانوا هم الذين يقارنون أنفسهم بهم فيسعون للتشبه بهم ومحاكاتهم، ومع تحول الغلبة إلى الجانب الآخر بدأت تلك العقدة تنتقل إلى المسلمين وقد شاهد ابن خلدون ووصف الإرهاصات الأولى لهذا التحول في عصره في البيئة الأندلسية، إذ يقول:"حتّى أنّه إذا كانت أمّة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التّشبّه والاقتداء حظّ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فإنّك تجدهم يتشبّهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتّى في رسم التّماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتّى لقد يستشعر من ذلك النّاظر بعين الحكمة أنّه من علامات الاستيلاء والأمر للّه"[vii].

من هم الملحدون وأشباه الملحدين؟

لن نقف طويلا عند تفاصيل التعريفات التي تناولت الإلحاد ومعناه والفروق الدقيقة في دلالاتها تجنبا للإطالة والاستطراد بعيدا عن موضوع هذا البحث، ولكننا سنكتفي بدلالتها الذائعة المشتهرة التي تربط الإلحاد بنفي وجود الإله.

وسيأتي أن هذه الدلالة لم تأت من الدلالة الأصلية للكلمة في اللغة العربية وفي الاستعمال القرآني، ولكنها أخذت هذه الدلالة من الاصطلاح الناشئ من توظيفها في الترجمة ككلمة مقابلة لكلمة " ateism ".

وينص قاموس كامبريدج مثلا على أن "الملحد: شخص لا يؤمن بأي إله أو آلهة، أو يؤمن بألا وجود لإله أو آلهة"[viii].

والكلمة مأخوذة في اللغات اللاتينية من الكلمة اليونانية "أتيوس" وتعني: لا إله.

وكانت الكلمة في اليونان القديمة تدل على ما لا علاقة له بالدين. فكان من الممكن تمييز الأسماء الملحدة مثل أرسطو و فيليب، عن الأسماء ذات الدلالة الدينية مثل هرقل وإيزيدور. ويصف المصطلح أيضا "الأشرار" الذين لا يحترمون الآلهة المفترضة للمجتمع"[ix].

وصار الإلحاد اليوم مصطلحا يدل في البيئة الغربية على نفي الألوهية والدعوة إلى نفيها، فهو "اليوم موقف يتمثل في نفي وجود إله واحد أو آلهة عديدة. وهذا النفي للألوهية يمكن أن يترجم في حالة من اللامبالة أو في النضال (في سبيل نشر الإلحاد)"[x].

وقد فرض هذا المعنى بعد أن تمت ترجمة اللفظ اللاتيني إلى العربية بلفظ الإلحاد تحت تأثير الثقافة الغالبة، رغم أن هذا اللفظ قد ورد في القرآن الكريم بغير هذه الدلالة، أو بمعنى أوسع لا تمثل هذه الدلالة إلا جزءا منها، قال تعالى:"إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[فصلت: 40].

ومعنى:"إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا":"إن الذين يميلون عن الحق في حججنا وأدلتنا، ويعدلون عنها تكذيبا بها وجحودا لها"[xi]. والإلحاد في الآية ليس تكذيبا بالألوهية ولكنه تكذيب بالآيات كما ورد صريحا في الآية نفسها. قال ابن الجوزي:" وفي المراد به هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنه وضع الكلام على غير موضعه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه المكاء والصفير عند تلاوة القرآن، قاله مجاهد. والثالث: أنه التكذيب بالآيات، قاله قتادة. والرابع: أنه المعاندة، قاله السدي. والخامس: أنه الميل عن الإيمان بالآيات، قاله مقاتل"[xii].

ونص الطبري على أن هذه الأقوال كلها لا تعارض فيها وأنها جميعا صور للإلحاد في آيات الله، قال:"وكل هذه الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك في قريبات المعاني، وذلك أن اللحد والإلحاد: هو الميل، وقد يكون ميلا عن آيات الله، وعدولا عنها بالتكذيب بها، ويكون بالاستهزاء مكاء وتصدية، ويكون مفارقة لها وعنادا، ويكون تحريفا لها وتغييرا لمعانيها"[xiii].

وكما أن الاستعمال القرآني لكلمة الإلحاد لا يتضمن نفي الألوهية، فإن الدلالة الأصلية للكلمة أيضا في اللغة العربية لا تدل على هذا المعنى، فالإلحاد في اللغة العربية:" الميل والعدول. ومنه اللحد في القبر لأنه أميل إلى ناحية منه. يقال: ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل. ولحد لغة فيه"[xiv]

والخلاصة أن كلمة الإلحاد أخذت معناها المشهور من تداولها كمصطلح استعمل في ترجمة الكلمة اللاتينية المأخوذة من اليونانية القديمة وتم توظيفها كمصطلح يدل على نفي الألوهية، ولذلك، وتجنبا للالتباس استعملنا في هذه الورقة عبارة "الملحدون وأشباه الملحدين" تجنبا للالتباس وجريانا مع المصطلح المتداول ومن غير إغفال للدلالة الأوسع التي استعملها القرآن الكريم، فكل ناف للألوهية ملحد في آيات الله لأنه ينسبها إلى البشر ويستهزئ بها ويكذب بها ويميل عنها.

وفي المقابل: فبعض من يزعم الإيمان بالله وبآياته يحرفها ويميل عنها ويصرف معناها إلى ما يوافق هواه، فهو من الملحدين في آيات الله، وهؤلاء هم الذين سميناهم أشباه الملحدين، تفريقا لهم وتمييزا عمن يعلن نفيه للألوهية صراحة وإن اجتمع الفريقان في الإلحاد في آيات الله.

وأشباه الملحدين وإن زعموا أنهم يؤمنون بآيات الله، فهم في الحقيقة مائلون بمعانيها إلى ما يوافق أهواءهم، ولذلك لا بد عندهم من إنكار سنة النبي صلى الله عليه وسلم والطعن فيها تحت ذرائع كثيرة، ومن الاستخفاف بإجماع المسلمين، ومن وصف فقه المسلمين وعلوم الدين بالتراث والخرافة ووسم أهلها بالجهل وخفة العقل والمقلدين بأعين مغمضة، ومن سلموا عقولهم للشيوخ، ومن خدعهم الأعاجم، والذين لا يفهمون القرآن...

تجليات عقدة المغلوب:

لعقدة المغلوب عند الملحدين وأشباه الملحدين في بلاد المسلمين تجليات عديدة سنشير إلى بعض أصولها ومحاورها الكبرى في هذه الورقة في الحيز الءي يسمح به المقام، فمنها:

- **أولا: الإلحاد الانتقائي:**

والمقصود بالإلحاد الانتقائي اقتصار الملحد في انتقاده للأديان والعقائد على دين واحد وعقيدة واحدة، مغفلا، أو ربما مبديا قبوله لسائر الأديان والمعتقدات الأخرى، خاصة معتقدات الغالبين الذين ينظر إليهم نظرة دونية من منطلق هزيمته النفسية وشعوره أن كل ما يعتقدونه أو يعملونه منطقي ومقبول، إن لم يعتقد أنه هو الحق الساطع الذي لا يقبل جدالا أو نقاشا، ولولا ذلك ما كانوا هم الغالبين.

ويتجلى ذلك عند الملحدين في بلاد المسلمين في الطعن في المسلمين ودينهم وعقيدتهم فقط دون سائر العقائد والأديان، وفي الاستخفاف بالإسلام عقيدة وشريعة وعبادة ومنهج حياة، ونسبة التخلف عن ركب الحضارة في بلاد المسلمين إليه، وجعله –حسب زعمهم– رمزا للجهل والخرافة ومضادة العلم والفكر والمعاني الإنسانية من الحرية ونحوها، نع أن الملحد في البلاد الغربية الغالبة التي يشعر نحوها الملحد في بلاد المسلمين بالدونية ينكر الألوهية ويرفض الأديان كلها وأولها المسيحية التي "ترومنت" واصطبغت بعقائد وطقوس روما الوثنية على يد بولس وقسطنطين، واعتنقها الأوروبيون.

ويتعد الأمر إلى الطعن –لا في الأصول وحدها– بل إلى كل مسألة تفصيلية يعتقد الملحد أنها تجد لها في الإسلام قبولا ولو لم يكن الإسلام هو من ابتدأها وأنشأها، أو حتى شرعها ورغب فيها، بل ولو ظهر من تشريعاته مضادة لها وسعي في إزالتها.

ومن أشهر المسائل الطريفة في هذا الباب، سعي الملحدين الدائم لربط الإسلام بالعنف والتعطش للدماء وإزهاق الأنفس والتسلط على الناس وقمعهم وسلب حرياتهم ... ويتخطف الواحد منهم شريعة كشريعة الجهاد (الذي هو دفع للظلم وحماية للدين والأنفس والأعراض وكان سببا في حقن دماء الأقباط المصريين مثلا التي كانت تزهق على يد إخوانهم في العقيدة والملة –الرومان–)، أو يجتزئ نصا من نصوص القرآن والسنة يخرجه عن سياقه النصي والتشريعي والتاريخي، فيطير به مذيعا أن الإسلام دين العنف والدماء،

ولا تسمع له انتقادا للكتاب المقدس الذي يشترك في الإيمان به كل من اليهود والنصارى والذي يدعو إلى قتل الشيوخ و الأطفال بأبشع صورة وضربهم بالجدران وبقر بطون الحوامل وتهديم وتحريق البيوت... ولا يستثني حتى الحمير والبغال[xv]. والعجب العجاب أن القساوسة في الصفحات الصليبية وكبار مستشرقي اليهود والنصارى من قبلهم، ما زالوا يرددون هذا الكلام وهم قاصدون متعمدون للتعمية على دينهم وعقيدتهم.[xvi]

ومن أشهر المسائل أيضا، سعي الملحدين في بلاد المسلمين لربط الإسلام بالرق والعبودية وسلب حريات الناس، مع أن الرق لم يولد مع الإسلام، ولم توجد شرعة في كل ما عرف من التشريعات البشرية سعت لضبطه وتقنينه وتقليله وصبغه بصبغة إنسانية حتى جاء الإسلام، فضلا عن أن ترغب شريعة أو أمة أخرى غير شريعة الإسلام وأمته في العتق وتحرير الرقاب، وتربط ذلك بالعديد من الكفارات والقربات كما فعل الإسلام. ولئن اهتدى الناس لتوقيع معاهدات تمنعه فإن ذلك لا يضاد الإسلام بل يوافق مقصدا من مقاصده الكبرى، إذ أن المصدر الوحيد للرق الذي أقره الإسلام هو معاملة الأعداء المحاربين معاملة بالنثل بفرض الرق عليهم كما يفرضونه على المسلمين، ولا يصبح الأسرى أرقاء بمجرد وقوعهم في الأسر حتى يضرب عليهم الرق بقرار من ولي أمر المسلمين. وما قيل من قبل من أنك لن تسمع للملحد في بلاد المسلمين انتقادا لما نصت عليه الأديان البشرية والكتب المحرفة وما فعله الغربيون الصليبيون باسمها عبر التاريخ من استعباد وإذلال للأحرار فضلا عن الأرقاء، وقل مثل ذلك في القساوسة الصليبيين ومعلميهم من المستشرقين.

ومن المضحكات أن تجد أشباه الملحدين مشتركين مع الملحدين والقساوسة والمستشرقين ومنخرطين معهم في هذا النقد رغم زعمهم الإيمان بالقرآن، ولكنهم اخترعوا حيلة أخرى فقالوا إن هذه الأمور تحريفات أدخلت على الإسلام، وأنه يجب تجريده منها واستنساخ نسخة جديدة من الإسلام لا تعارض ما يريده الغربيون، ولا تتضمن شيئا لا يعجبهم ولا يوافق أهواءهم، مع أن الغربيين أنفسهم لم يطلبوا ذلك ولا أرادوه، بل يعلنون رغبتهم في هدمه وإزالته، ويجهرون بتكذيبهم لنبيه (صلى الله عليه وسلم) واستهزائهم بكتابه.

- **ثانيا: مسلمات الملحد التي تمت برمجته عليها هي العقل:**

من يستمع إلى الملحدين وأشباه الملحدين في بلاد المسلمين، يجدهم لا يشكون في أنهم أهل العلم والعقل والمنطق، وأن من يؤمنون بالإسلام والقرآن والسنة وعقيدة الإسلام وشرائعه أهل الجهل والخرافة واللامنطق، وهم يصفونهم بسبب وبغير سبب وبمناسبة وبغير مناسبة بأنهم عطلوا عقولهم، وأنهم أتباع ومقلدون عمي للشيوخ المحتالين الذين يتلاعبون بعقولهم.

وبناء على هذا المعتقد فهم يرددون دوما أن على هؤلاء المؤمنين بالدين (الإسلام) أن يتخلوا عن قناعاتهم لصالح الحوار العقلي المنطقي القائم على الدليل والحجة والبرهان والاستماع للآخر المخالف...

وإذا رد عليهم هؤلاء الذين يصفونهم بالتراثيين والمقلدين ومعطلي العقل والتفكير بالحجج العلمية والعقلية، استخفوا بأي رد بدر منهم واستهزؤوا بقائله دون أن يتكلفوا مجرد النظر في صحته ومنطقيته ووجاهة شبهته فضلا عن كونها حججا صحيحة تستند على معطيات علمية ومنطقية، فهي عندهم غير منطقية وعارية عن العلمية والحجية لمجرد صدورها عن هؤلاء الذين انطبع عندهم أنهم لا عقول لهم لمجرد إيمانهم بما لا يؤمنون هم به.

وإن المتمعن في خلفية هذا الغرور، يجدها تستند على عقدة الغلبة والدونية التي يشعر بها هؤلاء نحو الثقافة الغربية الوافدة التي رسخت قيما يعتنقها كل من يحب أن ينتمي إلى هذه الثقافة ويعد نفسه من أهلها، فأصبحت عند هؤلاء هي العقل والمنطق. ولذلك تثور ثائرة هؤلاء الملحدين وأشباه الملحدين حين يناقش أحد مسلماتهم ويخضعها للمساءلة والفحص والتدقيق، ويطلب منهم التدليل عليها وإقامة الحجة على منطقيتها وصحتها.

إن المتأمل في ما يسميه الملحدون وأشباه الملحدين "العقل" و "المنطق" يتبين له أنه مجموعة من المسلمات المتعارف عليها في ثقافة الغالب تمت برمجتهم عليها، ويريد هؤلاء الملحدون وأشباه الملحدين فرضها على من يحاورهم ويناقشهم ابتداء وأن يجعلوه مسلما بها ومستسلما لها قبل الدخول في أي حوار أو نقاش، فإذا ما طلب التدليل عليها أولا أصبح جاهلا ليس له عقل، وسارعوا إلى وصفه بالمقلد والتراثي والذي أسر الشيوخ تفكيره وما إلى ذلك من صفات...

في الواقع، تمثل هذه المسلمات "عقيدة" و "دينا" يعتنقه الملحدون وأشباه الملحدين ويكفرون من يخالفه فيخرجونه من دائرة العقل والفهم والمنطق والعلم ومجاراة التطور، وربما أخرجوه من دائرة البشر، لمجرد أنه لا يقبل الإذعان والتسليم من غير مساءلة أو تفكير لقيم الثقافة الغالبة، التي ذلت هم أعناقهم لها وسجدوا لأربابها وسبحوا بحمدهم بكرة وعشية .

من أشهر النماذج والأمثلة على هذه المسلمات التي لا تقبل النقاش عند الملحدين وأشباه الملحدين في بلاد المسلمين مسألة الحرية التي جعلتها الثقافة الغربية الغالبة دينا وعقيدة لا تقبل التشكيك أو النقد، ولا تخضع للبحث والمساءلة، وإن الإنسان يستطيع أن يستهزئ بالله ورسله وملائكته وأنبيائه، وأن يحط من قدر أي زعيم أو عالم ولو على وجه الطرفة والفكاهة والترفيه، والناس من حوله يبتسمون أو يضحكون، ومن كره من كلامه شيئا أدار وجهه للجهة الأخرى... أما أن يحاول أن يضع حدا وقيدا على أي نوع من العبث أو الإساءة باسم الحرية فسيجد نفسه "مرتدا" عن هذا الدين البديل، يتعرض للهجوم من القريب والبعيد ومن الكبير قبل الصغير.

ولا يحسبن أحد أن الثقافة الغربية الغالبة لا تعرف تقييد الحريات، فهي مليئة بالضوابط والقيود القانونية والاجتماعية في ما يتعلق بالجانب المادي والعملي من الحياة، وهناك لا تسمى هذه الأمور قيودا وحجرا على حرية الإنسان، بل ضرورات تنظم الحياة وتضبطها، ولكن المجال الذي ترفض الثقافة الغربية الغالبة تقييده أو ضبطه هو الجانب الذي يفصل بين الإنسان والحيوان، فهنالك تبنت هذه الثقافة الغالبة رفض أي قيد على الكفر بالله والاستهزاء بالرسل والأنبياء وخلط الخبيث بالطيب، وجريان الإنسان خلف غرائزه ونزواته وشهواته كالكلب المسعور يلهث وراء كل جيفة.

ومن العجيب أن يتم تقييد حرية من يخالف هذه الثقافة ويأبى أن ينغمس في أوحال الحيوانية باسم هذه الحرية نفسها وتحت عنوانها وشعارها كما فعلت الحكومات الفرنسية المتعاقبة في فضائح تقييد حرية المسلمات في ارتداء الخمار في المدارس والنقاب في الأماكن العامة ولباس البحر الذي لا يعري الجسد تعرية كاملة على الشواطئ .

وقد أصبحت عقيدة "حرية الكفر والانحلال والتفسخ والحيوانية" مسلمة من المسلمات غير القابلة للنقاش عند الملحدين وأشباه الملحدين في بلاد المسلمين تحت تأثير عقدة المغلوب، لذلك تجدهم

يصفون من يرفض المثلية والعلاقات الحرة ونحوها ... أو حتى من يسمي من يكفر بعقيدة الإسلام وشرائعه ويعتنق عقيدة غير عقيدته بغير المسلم، بالمتعصب والمتطرف وممارس الإرهاب الفكري وعديم العقل والتراثي وما في معناها من أوصاف.

- **ثالثا: كل ما يرمز للإسلام مرادف عندهم للجهل والتخلف:**

إن أكبر معضلة يعاني منها المغلوب هي محاولة التماهي مع الغالب والانصهار فيه، ولشدة حرص الملحدين وأشباه الملحدين في بلاد المسلمين على التخلص من شعور الدونية، فقد تبنوا كل معتقدات الغربيين الغالبين ونظروا أو حاولوا النظر إلى الأشياء بأعينهم، ونتيجة لذلك فقد تبنوا فكر الغربيين ذي الجذور الصليبية الحاقدة، والذي يحمل ميراثا تاريخيا ثقيلا من العداء للإسلام وأهله شحنته حروب الكنيسة المادية والمعنوية وحقدها المعلن على دين غزاها في عقر دارها وألقى الضوء على كثير من الهرطقات والتناقضات الموجودة في عقيدتها.

ومع تحول الغلبة المادية لصف الغربيين ذوي الثقافة اليهودية المسيحية –كما يعرفون عن أنفسهم–، حرص أتباع الكنيسة على محاربة الإسلام والطعن فيه والافتراء عليه وإلصاق كل تهمة باطلة بعقيدته وشريعته ونسبته إلى الجهل ومعاداة العقل والتنوير. وقد تم ترديد هذه الأكاذيب والافتراءات بصورة مطردة ومتكررة حتى أصبحت بدهيات ومسلمات عند سامعيها نشؤوا على تعلمها وحفظها ورضعوها منذ الصغر مع لبن أمهاتهم.

ولئن كان من المفهوم أن توجد هذه الاعتقادات والتصورات عند من نشؤوا في البيئة الغربية، فإن الذين نشؤوا في بلاد المسلمين من الملحدين وأشباه الملحدين قد تبنوها وأشربتها قلوبهم ووجدت لها هوى في نفوسهم فطاروا بها فرحا يرددونها ويبثونها ويطربون لها، ويشهرونها بسبب وبغير سبب في وجه المسلمين التراثيين المغفلين –طبقا لاعتقادهم– والذين يجدون صعوبة في التقدم وإدراك ركب الأمم المتحضرة نتيجة لعجزهم عن التخلص من دينهم ومعتقداتهم التي يصفها أولئك بالتراث والتقليد عن جهل لشيوخ جهلة وكذابين وناقلين للخرافة والكذب.

ومن حاول أن يبحث عن سبب هذا السلوك، وجده نابعا من عقدة الدونية التي يشعر بها هؤلاء المغلوبون المنهزمون نفسيا، والتي جعلتهم يريدون البراءة من تهمة الجهل والتخلف وتعطيل العقل والتفكير بنبذ معتقدات المسلمين والاستخفاف بها من جهة، وجعلتهم يريدون التماهي مع الغالبين والدخول في ركابهم بتبني كل أقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم.

وبناء على ما سبق فستسمع على ألسنة الملحدين وأشباه الملحدين من الذين نشؤوا بين المسلمين، نفس الشبهات والافتراءات والأكاذيب والاستهزاء الذي تسمعه على ألسنة القساوسة الصليبيين وما تردده صفحاتهم من الطعن في الإسلام وعقيدته وشريعته ورموزه وتاريخه.

- **رابعا: التكبر على المسلمين والسعي الدائم للحط منهم والذلة أمام الغربيين وتقديسهم:**

ومن آثار ما تقدم ذكره نشأت في نفوس الملحدين وأشباه الملحدين ممن نشؤوا في بلاد المسلمين نزعة من التعالي على المسلمين حين أقنعوا أنفسهم هم أنهم ينتمون للغالب وثقافته، وأنهم يمثلون طليعة التجديد والإحياء بين قطعان من التراثيين المتخلفين عن ركب الحضارة والذين لا ينتمون هم إليهم وإن نشؤوا بينهم رغما عنهم ومن دون رغبة منهم أو اختيار.

ويقابل نزعة التعالي هذه، شعور بالذلة والضعف أمام الغربيين الغالبين الذين انتبه ابن خلدون إلى أن المغلوب يولع بالاقتداء بهم رغبة في أن يصير مثلهم لأن شيئا في نفسه ينفث في روعه أن غلبتهم بسبب ما هم عليه.

وهذه الذلة حاول الغالبون استغلالها في تسخير فئة من المغلوبين لخدمتهم وترسيخ سيطرتهم على الأمم المغلوبة عبر تسليط أولئك الخدم عليهم واستعمالهم في السيطرة عليهم وإحكام قبضتهم عليهم وقتل روح المقاومة والتمرد في نفوسهم.

ولئن كان مظهر سيطرة الغالب على المغلوب ماديا، فهو في حقيقته وجوهره نفسي –أو كما أسماه مالك بن نبي "القابلية للاستعمار"–، ولم يكن ذلك ليخفى على مراكز الدراسات التي يديرها الغالبون، والتي لم تكن لتفرط في استغلال هذه الفئة المنهزمة نفسيا في ترسيخ سيطرتها على الشعوب المغلوبة وقتل روح المقاومة والتمرد فيها وبث نزعة الاستسلام والانقياد بينها، وقد استعملتها في نشر ثقافة الاستسلام

في كل مناحي الحياة والتي قد لا يتنبه لها الأذكياء فضلا عن العامة، وربما استهدفوا الأجيال الناشئة في صغرها من حيث لا تشعر، وغير بعيد كان الصغار في بلدنا يلعبون لعبة "قذرة" ترسخ فكرة العبودية وسوء الخلق والاستعداد لفعل أي شيء لإرضاء الغالب المجهول، عنوانها:"قال جاك/Jaques a dit" وعلى اللاعب فيها ألا يمتنع عن تنفيذ أي أمر سبق بتلك العبارة وإلا أقصي. وهي في أصلها لعبة فرتسية للصغار يستغلها الفرنسيون في التعليم واللعب الجماعي، لكنها في البيئة التي تعاني من آثار الاستعمار ترسخ طاعة الغالب والامتثال لأوامره، وتجعل المتفوق الذي يستحق الثناء والتقدير هو من لا يتورع ولا يتردد في تنفيذ أي أمر من أوامر "جاك" الذي لا ينتمي لدينه وعرقه وأمته . ورغم أن الأطفال لم يكونوا المعنى الذي يختفي وراء العبارة إلا أن غرس العنوان قد يؤدي إل ضم مضمونه إليه في فترة ما.

هؤلاء الذين زرعوا وجوب المسارعة إلى تنفيذ أوامر "جاك" لمجرد أن قال "جاك"، هم أنفسهم الذين يريدون أن يقنعوا المسلمين بأن قال الله وقال رسوله صلى الله عليه وسلم لا قيمة لها ولا توجب طاعة ولا تنفيذا ويحتاج سامعها لأن تبرر له ويتم إقناعه بها.

خاتمة:

هذه بعض المعالم المحورية التي تشكل وتؤطر فكر الملحدين وأشباه الملحدين المغلوبين نفسيا والذين يشعرون بعقدة الدونية تجاه الغربيين، وإغفالها في محاورتهم يؤدي إلى دخول المحاور لهم في جدل عقيم معهم، إذ لا بد لمن يدخل في حوار مع هذه الطائفة من الناس أن يستحضر الخلفية التي تحركهم ويسعى في كسر قناعاتهم ويحول بينهم وبين اعتبارها منطلقات ومسلمات، وإلا كان كل حوار أو محاولة تصحيح لأفكارهم نفخا في الرماد.

والحمد لله وصل الله وسلم على رسوله وعلى آله وصحبه أجمعين

---

[i] تاريخ ابن خلدون 185/1، دار الفكر، بيروت، ط1: 1401هـ-1981م.

[ii] نفسه

[iii] نفسه

[iv] ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم ص363، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط6: 1419-1997.

[v] محمد واحمان،أسسوا "حركة الشهداء" لوقف مسار الأسلمة وشكلت العربية 8% من الإسبانية.. قصة خضوع المغلوب الأوروبي لتأثير الغالب الأندلسي، الجزيرة.نت
https://www.aljazeera.net/amp/turath/2020/8/25

[vi] نفسه

[vii] تاريخ ابن خلدون 185/1

[viii] Someone who does not believe in any god or gods, or who believes that no god or gods exist : https://dictionary.cambridge.org/fr/dictionnaire/anglais/atheist

[ix] « Dans la Grèce antique, « athée » désignait ce qui ne relevait pas de la religion : on distinguait par exemple les noms athées (« Aristote », « Philippe ») des noms théophores (« Héraclès », « Isidore »). Le terme qualifiait également les « impies », ceux qui ne respectaient pas les divinités de la société envisagée ». Ahbab Jamal, ATHÉISME, AGNOSTICISME, ANTICLÉRICALISME – QUELQUES DÉFINITIONS, L'Institut d'étude des religions et de la laïcité (IREL) – https://irel.ephe.psl.eu/ressources-pedagogiques

[x] « Aujourd'hui, attitude qui consiste à nier l'existence d'un (ou plusieurs) dieu(x). Cette négation du divin peut se traduire par une indifférence ou une militance »,Ahbab Jamal, ATHÉISME, AGNOSTICISME, ANTICLÉRICALISME – QUELQUES DÉFINITIONS, L'Institut d'étude des religions et de la laïcité (IREL) – https://irel.ephe.psl.eu/ressources-pedagogiques

[xi] تفسير الطبري 476/21

[xii] ابن الجوزي، زاد المسير 54/4.

[xiii] تفسير الطبري 478/21

[xiv] تفسير القرطبي 366/15

[xv] حزقيال (6:9):"الشيخ و الشاب و العذراء و الطفل و النساء ((اقتلوا للهلاك)) و لا تقربوا من إنسان عليه السمت و ابتدئوا من مقدسي فابتدئوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت ..".

يشوع (21:6):" و حرموا كل ما في المدينة من رجل و امرأة من طفل و شيخ حتى البقر و الغنم و الحمير بحد السيف".

صموئيل الأول (3:15):" فالآن اذهب و اضرب عماليق و حرموا كل ما له و لا تعف عنهم بل اقتل رجلا و امرأة، طفلا و رضيعا، بقرا و غنما، جملا و حمارا".

هوشع (16:13):" تجازى السامرة لأنها قد تمردت على إلهها بالسيف يسقطون، تحطم أطفالهم و الحوامل تشق".

مزمور (9:137):" طوبى لمن يمسك أطفالك و يضرب بهم الصخرة".

أرميا (16 : 4،3):" لأنه هكذا قال الرب عن البنين و عن البنات المولودين في هذا الموضع و عن أمهاتهم اللواتي ولدنهم و عن ابائهم الذين ولدوهم في هذه الارض: ميتات أمراض يموتون لا يندبون و لا يدفنون بل يكونون دمنة على وجه الأرض، و بالسيف و الجوع يفنون و تكون جثثهم أكلا لطيور السماء و لوحوش الارض".

صموئيل الثاني (31:12):" وأخرج الشعب الذي فيها وضعهم تحت مناشير و نوارج حديد وفؤوس".

العدد (17:31):" فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، و كل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها".

[xvi] شاء الله سبحانه وتعالى أن يفضح هذا النفاق والخداع اليوم مع الحرب التي يشنها صهاينة اليهود والنصارى على الأطفال والشيوخ في فلسطين، ولم تتجل هذه الفضيحة في الأفعال التي تنفذ حرفيا ما أمر به الكتاب "المقدس"، بل وفي تصريحات كبار زعماء الكونغرس الأمريكي والكيان الصهيوني، والتي يفتخر أصحابها لهذه العقيدة الحيوانية الوثنية ويعلنون إيمانهم بها وتطبيقهم لها.